صدفة

محمد السيد كامل

لم أصدق نفسي عندما رأيتها أمامي أغمضت عيني وفتحتها أكثر من مره لأتأكد من أنها حقيقة وليست حلم أحسست بفرحة لا توصف وكأنني لم أفرح من قبل ، تركت منضدتي وسرت نحوها بخطوات مضطربة حتى وقفت أمامها مباشرة ولكنها لم تشعر بي ظلت مشغولة بهاتفها المحمول تتصفح عبر مواقع التواصل الاجتماعي تنحنحت قليلًا ولكنها مازالت غارقة في عالمها الافتراضي أما أنا فقد غرقت في سحر جمالها فهي مازالت بنضرتها وجمالها وكأن تلك السنين لما تمر عليها وفي لحظات ذوبت في كل تفصيله فيها بشرتها البيضاء ؛ عيونها الزرقاء ؛ ثغرها الصغير ؛ شعرها الأسود الطويل كل شيء جذبني تجاهها دون إرادتي وفجأة شعرت بوجودي فنظرت لي باستغراب دون أن تتفوه بكلمة..

فقلت بخجل :

- ازيك يا صافي ؟

سألتني بحدة :

- أنت مين وعايز ايه ؟

فأجبتها بنبرة حزينة :

- أنا هاشم زميلك في الجامعة ، الكلام ده من عشر سنين .

ولكنها مازالت تنظر ناحيتي باستغراب وبدأت علامات الضيق تظهر

على ملامحها حيث زفرت بقوة وكأنها تريد إنهاء هذا الحوار السخيف .

ابتسمت شبه ابتسامة محاولا تلطيف الجو بيننا ثم قولت لها :

- فاكرة كافيتريا الجامعة؟ ده إحنا كنا بنقعد فيها بالساعات ونطنش المحاضرات .

رددت بعجرفة :

- أه افتكرت .

شعرت ببصيص من الأمل دخل قلبي سحبت كرسيًا لأجلس بجوارها كما كنا نجلس في الجامعة وقبل أن أجلس أوقفتني بنبرة جادة حيث قالت :

- أنت بتعمل ايه ؟

فقلت لها بسذاجة :

- هأقعد معاكي شوية ذي ما كنا بنقعد مع بعض في الكافتيريا ، ياه كانت أيام جميلة بجد .

رددت بضيق :

- معلش مش هينفع في ناس جاية تقعد معايا .

احمرّ وجهي من شدة الحرج شعرت بأنني لا شيء وكأنني أقف عاريًا في قلب المقهى فيتفحصني رواد المكان باستهزاء ، قلت لها بنبرة حزينة :

- أنا آسف إني خدت من وقتك دقايق .

لم ترد ولم تنظر ناحيتي وعادت لهاتفها المحمول أما أنا فتركت المقهى

وانصرفت جارًا خلفي بقايا كرامة مبعثرة وصورة لماضٍ جميل شُوّه على يديها.

سرت في الشارع كالتائه ليس لي وجهة محدده شردت في الماضي البعيد لأكثر من عشر سنوات.. أول يوم في الجامعة حينما ترى كل شيء بالألوان الحياة والمستقبل ، اليوم والغد حتى الأشخاص تراهم أناس طيبون ، داخل قاعة المحاضرات جلست جواري فتاة جميلة تشبه الملائكة فقدت تركيزي لأفهم ما يشرحه الدكتور في المحاضرة وظل عقلي مشغول بتلك الكلمات ولكني خجلت أن أنظر إليها حتى لا تلاحظ ذلك ، وبعد انتهاء المحاضرة وقبل أن تخرج من القاعة أوقفتها قائلًا بتردد :

- لو سمحت يا آنسة .

التفتت لي ثم قالت بجدية :

- أفندم .

فسألتها بثقة مزيفة :

- ممكن كشكول المحاضرات أصوّر منه محاضرة النهارده .

فرددت بجرأة : مش أنت كنت قاعد جانبي في المحاضرة !

ألجمني الخجل ولم أتفوه بحرف أحسّت الفتاه بالذنب تجاهي فابتسمت بهدوء كمحاولة لتلطيف الجو ثم قالت :

- عموما كشكول المحاضرات أهو .

مددت يدي وأخذت منها كشكول المحاضرات وأنا في قمة سعادتي ثم

قلت بفرحة محاولًا إخفائها :

- أنا مش عارف أشكرك إزاي !

فرددت بعجرفة نابعة من شخصيتها :

- انجز علشان مش عايزة أتأخر .

استجمعت شجاعتي المزيفة قائلا : طب ينفع أعزمك على حاجة في الكافتيريا عقبال ما أصور الورق .

صمتت قليلا لتفكر في كلامي أما أنا فتملكني التوتر والقلق خوفًا من رفضها لعرضي وما أخافني أكثر رد فعلها الشرس وبعد لحظات من الصمت قالت بلهجة آمرة :

- روح أنت صوّر الورق وأنا هأقعد في الكافتيريا أشرب كابتشينو .

انطلقت كالطلقة أثناء خروجها من ماسورة المسدس لحظة الضغط على الزناد أنجزت كل شيء في سرعة البرق ركضت إلى المكتبة صورت الورق وعدت إلى الكافتيريا لأجلس أمامها بقلب ينبض بقوة، نظرت ناحيتي باستغراب ثم سألتني : مالك بتنهج وعرقان كده ليه هو أنت كنت بتجري ورا حد؟

أجبتها بخجل :

- مكنتش عايز أتأخر عليك.

ابتسمت في وجهي قائلة :

- تشرب ايه ؟

أجبتها بسعادة :

- أنا اللي عزمك مش كفاية أخرتك .

قالت لي بدلال :

- ما هو أنت اللي هتوصلني لحد باب البيت .

وكأني أمسكت مفتاح السعادة بيدي فقلت لها :

- النهاردة أجمل يوم في حياتي .

احمر وجهها خجلًا فقالت :

- أنت هتفضل باصصلي كده كتير .

فأجبتها بتردد :

- أصلك جميلة أوي .

كلما احمر وجهها من الخجل كلما زادت جمالا ولهذا فضلت النظر إليها من الحديث معاها ولكنها كانت تخجل من نظراتي المتفحصة فخشيت أن أضايقها فسألتها :

- صحيح لحد دلوقتي معرفش اسمك ايه ؟

فأجابتني :

- صدفة .

وكانت أجمل صدفة في حياتي استمرت علاقتنا طوال سنوات الدراسة بدأت بالصداقة وتطورت بشكل سريع إلى إعجاب ثم قصة حب.. وكانت هذه أجمل أيام حياتي.. أستيقظ من النوم على صوتها الدافئ ثم نتقابل في الجامعة نجلس وحدنا بعيدًا عن الطلاب.. أنظر إلى عينيها وأتيه فيهما، أغازلها بأعذب الكلمات والتي تعجز عن وصف جمالها، أتلفت حولي لأتأكد من أننا بمعزل عن أعين المتلصصين لأطبع قبلة على خدها، أذوب عشقًا حينما أشم رائحة عطرها المثير.. باختصار شديد وأنا مع صدفة كأنني أملك الدنيا بما فيها .

في السنة الأخيرة في الجامعة ألحت عليّ صدفة أن أقابل والدها لكي أفاتحه في موضوع زواجنا رفضت في البداية لأنني لا أقف على أرض صلبة ولكن مع إلحاحها المتواصل استجبت لطلبها وتم تحديد موعد لمقابلة الأب والذي قابلني بوجه جامد حيث سألني :

- وأنت تعرف صدفة منين ؟

فأجبته بقلق من أقدم على هذه الخطوة :

- أنا زميلها في الجامعة حضرتك .

فقال بخبث :

- يعني طالب مبتشتغلش .

فرددت مدافعًا عن موقفي :

- كلها كام شهر وأتخرج وساعتها هاشتغل وأحوش .

سألني بوجه عابث :

- عندك شقة ؟

فرددت في حزن :

- ربنا يكرمني وأحوش وأشتري شقة .

فقال بضيق :

- يعني لا بتشتغل ولا عندك شقة، أمال جاي ليه؟

نزلت من بيت صدفة وأنا محطم لقد طعنني أبوها بخنجر مسموم في قلبي حتى احتضر حلمي أمامي ولفظ أنفاسه الأخيرة ، في اليوم التالي قابلتني صدفة بوجه جامد يخلو من أي مشاعر حب جمعتنا في يوم من الأيام حيث قالت :

- مينفعش نكمل مع بعض ما دام بابا رفضك .

صرخت قائلا:

- والحب اللي بينا خلاص انتهي ولا كان مجرد كلام .

تركتني وانصرفت لأعيش وحيدًا بعدها إلى أن قابلتها اليوم وتجدد الأمل بداخلي مرة أخرى ولكن للأسف ذبحتني المرة الثانية دون أدنى إحساس بالذنب .